محاضرات نحو الجمل والمعاني.....د باديس لهويمل

الحصة الثالثة : الأربعاء 03 نوفمبر 2021 الساعة 14:00- 15:00 مدرج :A

نعالج هنا تركيبا ورد في القرآن الكريم نحاول من خلاله تحليل كيف تم اختيار ونظم كلماته بكيفية مخصوصة أهلته للوصول إلى الإعجاز البلاغي.

نعتمد في تحليلنا هنا على ما ورد في كتاب مفتاح العلوم للسكاكي (626هـ) ويمكنكم العودة إلى كتب أخرى بلاغية وكتب التفسير القرآني للآية .

تعالى: **"ربِّ إني وهن العظم منى واشتعل الرأس شيبا"** (مريم: 4)

تضماللغة في التعبير عن المعنى مستويين مهمين حسب السكاكي:

أ/ المستوى اللغوي(أصل المعنى)

ب/ والمستوى الكلامي

المستوى اللغوي أو ما أطلق عليه **أصل المعنى** أو أصل الكلام ، يتمثل في الصورة المثالية الذهنية للغة التي تتعايش في أذهان المتكلمين بها ، وهي تخضع لمجموعة من النظم والقوانين الاجتماعية التي تحكم النظام اللغوي بأكمله ، وتتكفل بتحقيق التواصل اللغوي بين المتكلمين بها.

والمستوى الكلامي يتمثل عنده في الصورة الفردية للأداء ، التي تتميز بنسبية أدائها ، وتطبيقها للنظم اللغوية , وهذا هو مجال الإبداع الفردي الذي يقاس مستواه الفني بمدى تطبيقه لنظم وقوانين اللغة ، ومدى انحرافه وعدوله عنها .

لهذا كان السكاكي في معظم الأحيان يقابل بصورة فعلية بين هذين المستويين عند تحليله للنصوص القرآنية أو الأدبية ، لإبراز القيم الجمالية والدلالية التي تتمتع بها , ومما يؤكد ذلك بصورة إجرائية تناوله لجماليات النص القرآني في قوله تعالى : **" ربِّ إني وهن العظم منى واشتعل الرأس شيبا" (مريم ، آية : 4)**

يقول: " والكلام في تلك اللطائف مفتقر إلى أخذ **أصل معنى الكلام ومرتبته الأولى** ، ثم النظر في **التفاوت** بين ذلك ، وبين ما عليه نظم القرآن ، وفي كم درجة يتصل أحد الطرفين بالآخر "1.

وانطلاقا من هذا المبدأ أخذ في تحديد

أصل المعنى وهو يا ربي قد شخت لينتقل منه إلى تتبع مستويات الأداء اللغوي المترتبة عليه ، أو التحولات الممكنة التي تبدأ من هذه البنية العميقة في تدرج متوال نحو البنية السطحية ، وما بينها من تفاوت دلالي وجمالي .

وقد فطن السكاكي إلى أن القيمة الجمالية تتناسب مع درجة الانحراف تناسبا طرديا ، بحيث نقترب من المستوى الفني الرفيع ، ونبلغ درجة أكبر من الإمتاع والتأثير كلما أمعنا في درجة الانحراف ، وابتعدنا عن التعبير المثالي ، والعبارة المألوفة، و يتضح ذلك في تحليله لمستويات التعبير الممكنة التي ترتبط بالآية السابقة حيث يقول : " ثم تركت هذه المرتبة (**يا ربي قد شخت**) لتوخي مزيد التقرير إلى تفصيلها في : **ضعف بدني وشاب رأس**ي ، ثم تركت هذه المرتبة الثانية لاشتمالها على التصريح إلى ثالثة أبلغ وهي : الكناية ، في **وهنت عظام بدني** ، لما ستعرف أن الكناية أبلغ من التصريح ....)2. وهكذا يتدرج في الانتقال من مستوى أدائي إلى مستوى آخر مبرزا وجوه التفاوت بينه وبين ما سبقه ، إلى أن يصل إلى المستوى الأخير فيقول :" ثم لطلب شمول الوهن العظام فردا فردا ، قصدت مرتبة ثامنة وهي : ترك جمع العظم إلى الإفراد لصحة حصول وهن المجموع بالبعض دون كل فرد فرد، فحصل ما ترى وهو الذي في الآية **إني وهن العظم مني**" 3 .

ثم ينتقل إلى الجزء الثاني من الآية " **واشتعل الرأس شيبا** " فيقول :"وهكذا تركت الحقيقة في شاب رأسي إلى أبلغ وهي الاستعارة ... فحصل **اشتعل شيب رأسي** ، ثم تركت إلى أبلغ وهي اشتعل رأسي شيبا "4. مقررا في أعقاب ذلك وجوه بلاغتها وقيمتها الفنية .

---

[1]- مفتاح العلوم : 285 .
[2] - السابق : 286 .
[3] - المصدر نفسه : 286 .
[4] - مفتاح العلوم : 286 .

ومما ينبغي الإشارة إليه أن هذا التدرج في مستويات الأداء اللغوي ، لا يمر به المتكلم عند بناء العبارة الفنية ، وإنما هو إشارة إلى وجود صور تعبيرية محتملة لأداء المعنى ، عدل عنها المتكلم إلى الصورة المنطوقة في البنية السطحية ، لما تحمله من طاقة دلالية تفوق معظم الدلالات التي يمكن أن تؤديها الصور المحتملة الأخرى , ويصبح الغرض من الإحالة إليها من قبل المتلقي إبرازا للقيمة الجمالية ، والفائدة الدلالية التي اختصت بها العبارة المحسوسة دون غيرها من العبارات الممكنة .

وعلى الرغم من أن السكاكي قد رأى أن **أصل المعنى** هو المعيار الذي يمكن أن يقاس عليه الكلام الفني ، فإنه قد أدرك المأزق الذي يمكن أن يقع فيه المتلقي عند تحديد ذلك الأصل ، نظرا لاختلاف وجهات النظر حول تحديد الجملة النواة ، من شخص إلى آخر .

فالتركيب يبنى على ثنائية الاختيار والتأليف ، بحسن اختيار اللفظة المناسبة في المكان المناسب وحسن تأليفها مع اختها لتادية معنى يتجاوز المستوى اللغوي العادي إلى نظم بلاغي راق أرقى صوره النظم القرآني

تطبيق: حلل الآية نفسها استنادا لما ورد في كتب التفسير خاصة التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور، والكشاف للزمخشري، ويمكنك الاعتماد على كتاب حمادي صمور التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره، وكتاب البلاغة والأسلوبية عند السكاكي وكتابي الجرجاني والسكاكي دلائل الإعجاز ومفتاح العلوم .